

الفلستينون بين النكبة ومحاولات التصفية



لم يهنأ الفلستينون بعيش كريم منذ أن هجروا من بلادهم في الـ15 من مايو 1948، ولم يكن من الفلستينيين من يظن أنه لن يرى بيته ثانية ولن يقطف ثمرة حقله ولن يعود لقريته بعد أن خرجوا منها تحت أزيز الرصاص ورمود المدافع وغارات العصابات الصهيونية، يبتغون موضعًا آمنًا يمكنهم فيه شيئًا من الوقت ريثما تضع الحرب أوزارها، حالهم في ذلك حال أي نازح لحقت بدياره نيران الحرب وأهوالها. وكان أغلب ظنهم أنها أيام يمكن احتمالها بما فيها من آلام وقهر، الكاتب الفلستيني عمر البرغوثي في كتاب "المراحل" وصف تصوّر المشردين للأحداث في الأيام الأولى للنكبة بقوله: "كان الأمل يحدو المشردين أن مدة نزوحهم عن أوطانهم قصيرة، وسيعودون إليها وهم يحملون راية النصر وسيستردون ما فقدوا، ونعمات الأمانى تدغدغ أحلامهم وتهديء هواجسهم"، وكان الشعب الفلستيني على ثقة بمجموعات الثوار والجيوش العربية التي جاءت لنصرتهم ورد العدوان عنهم، لكن الرياح جاءت بما لا تشتهيها القلوب المفزوعة، والخروج المؤقت امتد ليطوي اليوم عامه الـ70.

في حينها لم يحسب الفلستينون أنهم يمرون في سرداب مجهول النهاية، تدفعهم إليه عصابات المنظمة الصهيونية ومجموعاتها الإجرامية ضمن خطة محكمة أحيكت ليليل بليد تهدف في نهايتها إلى تفرغ فلسطين من سكانها وأهلها الشرعيين لإقامة دولة للكيان الصهيوني على أنقاضها، لم يُبق في سبيل إقامتها عصابات الحرب الصهيونية من قبيل الأفعال فَعَلًا إلا وارتكبتة ولم تدع جريمة من الجرائم إلا واستخدمتها لإرهاب الفلستينيين الذين جُلبهم من المدنيين والفلاحين المسالمين ممن ليس لهم معرفة بدسائس الحركة الصهيونية ومكرها ولا خبرة عندهم بفنون القتال وعلومه.

كانت تلك العصابات تُغير تحت جنح الظلام على الناس وهم نيام في بيوتهم وتقتلهم بالسلاح الأبيض تارة والرصاص والقنابل أخرى

المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه أكد في كتابه "التطهير العرقي في فلسطين" أن ما جرى في فلسطين تطهير عرقي مخالف للأعراف والقوانين الدولية ويعتبر جريمة ضد الإنسانية، وكشف أنه بتاريخ 10 من مارس 1948 عقد دافيد بن غوريون اجتماعاً في تل أبيب بحضور 10 من القادة الصهيونيين لوضع اللمسات الأخيرة على خطة لتطهير فلسطين عرقياً تسمى الخطة "دالت" التي تضمنت أوامر صريحة لوحدات الهاغاناه باستخدام شتى الأساليب لتنفيذ هذه الخطة ومنها إثارة الرعب وقصف القرى والمراكز السكنية وحرق المنازل وهدم البيوت وزرع الألغام في الأنقاض لمنع المطرودين من العودة إلى منازلهم وتدمير المدن الفلسطينية واحتلالها بعد مجازر بشعة، ومع اكتمال تنفيذ الخطة كان نحو 800 ألف فلسطيني قد أُرغموا على الهجرة إلى قطاع غزة والضفة الغربية والدول المجاورة، ودمرت 531 قرية وأُخلي 11 حيّاً مدنيّاً من سكانه.

كانت تلك العصابات تُغير تحت جنح الظلام على الناس وهم نيام في بيوتهم وتقتلهم بالسلاح الأبيض تارة وبالرصاص والقنابل أخرى، وتخرب حقولهم وتقتل دوابهم التي يستعينون بها على إنجاز فلاحتهم وإطعام عيالهم، ليس هذا فحسب بل استهدفت أيضاً نفوس الناس ومعنوياتهم مستخدمة أساليب الحرب النفسية والدعاية السوداء فأطلقوا الشائعات ونشروا الأكاذيب ليدب الرعب في قلوب الفلسطينيين وينغرس الوهن في نفوسهم.

وتحدث الدكتور شريف كناعنة في كتابه "الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟" عن الأساليب النفسية التي اتبعها اليهود لإكراه العرب على ترك بلادهم التي كانت توجهها الإذاعات اليهودية السرية إلى العرب الفلسطينيين من أجل تقويض ثقة السكان بأنفسهم وقياداتهم وإثارة الحديث عن الخلافات السياسية بين العرب وضعفهم وقلة كفاءتهم.

واستعمال مكبرات الصوت لبت تسجيلات لأصوات صرخات أنين ونحيب النسوة العرب ورنين أجراس عربات الإطفاء يقطعها صوت جنائزي مناشداً باللغة العربية: "انقذوا أرواحكم أيها المؤمنون، اهربوا لتنجوا"، وإذاعة إنذارات للعرب بضرورة الرحيل ومغادرة قراهم ومدنهم في فترات محدودة وإلا تعرضوا للقتل، من تلك النداءات "إذا لم تتركوا بيوتكم فإن مصيركم سيكون مثل دير ياسين، انج بنفسك"، وتوزيع بيانات كتب فيها: "على الناس الذين لا يريدون الحرب أن يرحلوا جميعاً، ومعهم نساؤهم وأطفالهم ليكونوا آمنين، إنها سوف تكون حرباً قاسية ودون رحمة ولا ضرورة لتخاطروا بأنفسكم".

تشتت الشعب الفلسطيني في بقاع الأرض ليعيش فصلاً آخر من الذل والهوان

مناحيم بيغين الذي كان رئيساً لفيلق في منظمة "شتيرن" إبان نكبة عام 1948 اعترف في مذكراته الواردة في كتابه الذي حمل اسم "التمرد" بأن الحركة الصهيونية عملت عبر بعض الإذاعات المحلية والصحف المبتدئة وبمساندة من الإعلام البريطاني على تهويل حجم هذه المذابح، وإرفاقها بأخبار عن انتهاك الأعراض حتى يصاب الفلسطيني بحالة من الرعب تدفعه نحو مغادرة مكان سكناه.

وجاء في كتاب "جندي مع العرب - مذكرات غلوب باشا" تنفيذاً لأكذوبة خروج الفلسطينيين طوعاً من بلادهم أو أنهم باعوها لليهود "العربي الذي يغادر أرضه راضياً، كان من الواجب عليه أن يبيع بيته، إذا كان يملك بيتاً، أو يحمل أمتعته ويستعد لهذا الرحيل على الأقل، ولكن أن يغادر بلده دون أن يحمل شيئاً ودون أن يعرف مصير عائلته، وأن يُقتل ابنه على يديه حتى لا يفكر في العودة، إن عربياً خرج من فلسطين بهذه الطريقة لم يغادر راضياً، إنما اليهود أجبروه على الخروج تحت وطأة الخوف والإرهاب، على إثر المجازر والمذابح الرهيبة التي نفذوها في طول وعرض البلاد".

تشتت الشعب الفلستيني في بقاع الأرض ليعيش فصلًا آخر من الذل والهوان، فلم ترحمهم عربوتهم ولم يشفع لهم ما أصابهم من ظلم الأعداء، فلا أبأس من مخيمات اللجوء ولا أسوأ من العيش فيها، وأصابهم من التهميش والتمييز والإهمال المتعمد والحرمان من الحقوق والخدمات الأساسية والإنسانية ما يزيد من شقاء العيش وذنك الحياة، الكاتب والمفكر الفلستيني الراحل حسن مصطفى يصف حياة اللاجئين الفلستينيين في خمسينيات القرن المنصرم بقول مؤلم في كتابه "واقعات" "وعدت لأعنى (بالميليمترات) بعد أن فاقت هذا العام الرقم القياسي، بل صرت أقيس الأمطار بالبيوت المنهارة والخيام المقتلعة والأرواح الذائبة".

تداول إعلاميون مشهورون لهم تأثيرهم في الشارع العربي على الفلستينيين منهم توفيق عكاشة الذي اتهم الفلستينيين في أكثر من مناسبة بأنهم ناس باعوا قضيتهم وباعوا أنفسهم وأن العرب منذ 1948 واقعون بسببهم في الدم

في هذا الوقت الحاسم الذي تواجه فيه القضية الفلستينية خطر التصفية عبر صفقة القرن الأمريكية، تتصاعد من أعلام وساسة عرب حملات ممنهجة من التحريض على الشعب الفلستيني، فلم يتورع ضاحي خلفان عن الدفاع عن "إسرائيل" في سلسلة من التغريدات عبر حسابه على "تويتر"، مؤكدًا أنهم يستحقون أن تكون لديهم دولة، بل مطالبًا العرب بمنحهم دولة يعيشون فيها باعتبارها دولة مسكينة، معتبرًا أن من يرفض مثل هذا الاقتراح يعد من الشياطين، وترهجم وزير الاستثمار السوداني مبارك الفاضل المهدي على الفلستينيين والمقاومة الفلستينية ومدحه لـ "إسرائيل" بوصفها دولة ديمقراطية وادعائه أن القضية الفلستينية أخرجت العالم العربي كثير جدًا.

ومن ذلك أيضًا تداول إعلاميين مشهورين لهم تأثيرهم في الشارع العربي على الفلستينيين، منهم توفيق عكاشة الذي اتهم الفلستينيين في أكثر من مناسبة بأنهم ناس باعوا قضيتهم وباعوا أنفسهم وأن العرب منذ 1948 واقعون بسببهم في الدم، ووصف الإعلامي عمرو أديب "إسرائيل" بالجارة وأنها الصح وأرسل لها سلامًا مريبًا!

وذهب المحلل الاقتصادي السعودي حمزة السالم إلى أبعد من ذلك حين روج للسياحة في تل أبيب، متوقعًا في تغريدات له على تويتر أنه إذا عُقد سلام مع "إسرائيل" فإنها ستصبح المحطة السياحية الأولى للسعوديين، وليس آخر تلك الطعنات مشاركة فريق الإمارات والبحرين مطلع هذا الشهر في سباق طواف إيطاليا الطبيعي الذي تستضيفه دولة الاحتلال في القدس.

لم يتركوا رغم طول نكبتهم أي وسيلة من وسائل النضال سلمية كانت أو مسلحة إلا وأخذوا بها لسان حال الفلستينيين في ذكرى نكبتهم: إن كان من الممكن أن نعتاد على العيش الخشن ونألف مكرهين الفقر والقتل، فليس من الممكن لنفوسنا أن تتجرع ولا لأرواحنا أن تطيق ظلم ذوي القربى وجلد الأقربين، وإن مل البعض من قضية فلسطين فإن الفلستينيين لن يكلوا ولن يملوا من المطالبة بحقوقهم المشروعة، وهم الذين منذ اللحظة الأولى لاحتلال فلسطين وقيام دولة الكيان على أنقاضها لم يتوانوا عن الدفاع عن وطنهم ولم يبخلوا وهم الفقراء المعدمين بالجود بكل ما يملكون من أجل أن يعودوا لديارهم ويستردوا حقوقهم، ورخصت في سبيل ذلك دمائهم وأرواحهم، وقدموا وما زالوا من صنائع الفداء والتضحية والصمود والتحدى ما تعجز عن وصفه الكلمات، ولم يتركوا رغم طول نكبتهم أي وسيلة من وسائل النضال سلمية كانت أو مسلحة إلا وأخذوا بها.

وليس أدل على ذلك ما نعايشه اليوم من فعاليات مسيرات العودة الكبرى، وكيف خرج الشارع الفلستيني بكل مكوناته وأطيافه وشرائحه إلى السياج الفاصل ليؤكدوا حقهم في العودة إلى وطنهم وقد أبدعوا من وسائل المقاومة السلمية ما يثير الإعجاب والتقدير.



رابط المقال: <https://www.noonpost.com/23305/>